الاسلام

ومسائله فى التاريخ

تأليف المستشرق المعروف

كارل . هـ . بكر (١)

C. H. Becker

— ١ —

لست أجد من ضرورة فى الوقت الحاضر تحفزنى إلى تبرير وجود الاسلام توطئة لدرسه . وكما أن درس التاريخ القديم يتمشى جنباً لجنب مع درس اللغات القديمة ، كذلك بحث الاسلام من الوجهة التاريخية ، انما يتيسر بدرس فيلولوجى - لغوى - يتناول اللغات التى تتكلمها الأمم المحمدية .

ومن السهل فى مقال تمهيدى كهذا ، أن نلم الماماً أولياً بتلك المشكلات المتشابكة التى يجب أن يتصدى لها الباحث اذا ما أزمع أن يدرس الاسلام .

غير أنه يكون من الحماقة أن يضع الباحث تصميما للطريقة التى يجب أن ينصرف اليها ، من غير أن يحاول فى الوقت ذاته أن يضيف إلى الموضوع شيئاً جديراً بالنظر والاعتبار . لهذا عمدت فى هذا المقال إلى بحث مسألة الاسلام نفسه ، لا المسائل المتعلقة بالاسلام

تستعمل لفظة « الاسلام » عادة فى كثير من المعانى المختلفة . فقد نستعملها لتدل على دين الاسلام سواء أتكلمنا فى تعاليم محمد الأصلية ، أم فى مجموع المذاهب القديمة التى هى شىء مختلف تمام الاختلاف عن تلك التعاليم ، أو فى دين المسلمين المعروف

---

(١) كارل . هـ . بكر Carl. H. Becker وزير الفنون والعلم والتربية فى ألمانيا ١٩٢٧ — وهو أحد مشهورى المستشرقين . أما أبحاثه الاسلامية فتعتبر من أدق المباحث وأطلاها وأكثرها ابتكاراً وأحيا فكرة وأصحها سنداً . ولقد ترجم كتابه (فتوحات العرب) الى الانجليزية وضمنه جامعة كيمبردج الى مجلداتها التى تخصصها لتاريخ القرون الوسطى ١٩١٣ - وله مجلة دائمة النشر برئاسته اسمها (الاسلام) Der Islam تكاد تكون المحور الذى تدور من حوله كل الأبحاث المبتكرة فى تاريخ الاسلام . وتعتبر منبعاً فائضاً للتنقيب المنتج فى أخص المسائل التى تتعلق بالمدنية الاسلامية (المعرب)

اليوم فى آسيا وافريقية . وسواء أوعينا فى أذهاننا أوجه النشاط الدينى التى يبديها الأتراك أو الزنوج ، وسواء أتكلمنا فى الغزالى أم فى المهدى السودانى ، فاننا نستعمل اللفظ ذاته ونقول « الاسلام » . وكلما كانت معارف الناس أقل ، كانوا أشد نزعة إلى التعميم . فمن ذا الذى يجرؤ مثلا على أن يصف الاوضاع الكنسية فى بلاد الحبشة بأنها ذات النصرانية ، من غير أن يعرض نفسه للاستهزاء والسخرية ؟ ولا جرم أن القول بأن هذه الأوضاع هي بذاتها البروتستانتية النصرانية ، من غير تعديل أو تكافؤ بين الحالات ، لأبعد من أن يتورط فيه باحث يزن الاشياء بميزانها الصحيح . ولم نكتف بهذا ، بل استعملنا لفظ « الاسلام » ليدل على إحدى امبراطوريات الشرق العظمى ، أو على كل الحكومات المتفرقة التى كانت تنشأ عادة على أنقاض الامبراطوريات الكبرى وبقاياها ، حتى لقد نطلق الاسم على الحكومات المحمدية التى نراها قائمة من الزمان الحاضر . غير أننا لم نعن « بالاسلام » مجرد الحكومات الفعلية ، بل صرفناه على شيء أكثر من هذا خطراً . فعرفناه على أن نظرية سياسية سواء أقامت تلك النظرية على مذهب سياسى أو مبدأ تنزيلى .

وكلما استعمقنا فى بحث هذا الموضوع ، ازددنا اقتناعاً بضرورة التفريق بين المدلولات . غير أنه ليس فى وسعنا أن نقرر بصلابة أن تعريفاً جامعاً مانعاً يجب أن يوضع لتحديد ما نعنى بلفظ « الاسلام » فى كل حالة من الحالات الخاصة ، وعلى الأخص إذا عمدنا إلى وضع تقديرات معينة للقيم المتناظرة . على أن الباحث الاختصاصى مهما جهد نفسه فى التحوط والحذر ، ومهما بذل من عناية فى استخلاص تلك التحديدات الضرورية ، فانه لامحالة يستعمل تلك اللفظة العامة — « الاسلام » — على أنه يجب أن نتساءل : هل لهذا من مبرر ؟ أو بعبارة أخرى : هل كل المعانى المختلفة التى يجمع بينها هذا الاصطلاح ، تدخل حقيقة تحت مدلول « الاسلام » عامة ، ذلك المدلول الذى لايخرج بدياً وتخصيصاً ، عن أنه دين ؟ غير أن هذا السؤال قد أجبنا عليه مقدماً وحددناه ، إذ قلنا بأن اصطلاح « الاسلام » ومسألته فى التاريخ ، قد استعملناه من غير أن نضيف إلى ظاهره مدلولات أخرى

أما وقد حللنا كلمة « الاسلام » ، فاننا بذلك نكون قد جاوزنا النظر فى العوامل الأساسية ، التى إذا أخذت فى مجموعها ؛ كونت ذلك الشيء الذى نحس بأنه التصور الوحيد الذى يمكن أن نكونه فى « الاسلام » : أى ذلك الايمان الكلى المتماسك الاطراف ، وذلك المثل السياسى الاعلى المتآلف الاجزاء ، وتلك المدنية المتناسقة التى

تمشى فى أجزائها فكرة الوحدة والائتلاف ، والتى فضلا عما نجد فيها من الاختلافات الموضعية ، نلمح فى مجموعها وحدة المثل العليا ، كما تقع فيها على شىء من الوحدة فى العمليات . وما من شك فى أن « الدين » هو الذى يجمع بين هذه العوامل الشتيتة ، وأن الفكرتين ، السياسية والمدنية كلتيهما ، لم تكونا لتنتشرا وتثبتا مع الزمان ، لولا قيامهما على قاعدة الدين . وكذلك نجد فى الوقت الحاضر أن « الاسلام » رابطة من الوحدة قوية ، عادلت فى كل عصور « الاسلام » قوة « القومية » الشديدة الأثر فى النفوس ؛ فجمعت بين الناس وكونت منهم عصباً أقوى وأشد مراساً . فان زنجياً من زنوج قبيلة « الونغيدو » — Wangido فى شرق افريقية الألمانية اذا أصبح مسلماً ، فانه لا يتسمى باسم قبيلته بل يتسمى « بالاسلام » (١) ويصبح العربى أخاً للزنجى المسلم ، وبذلك تتماسك كل الخيوط المختلفة وتتفق كل النزعات المتنافرة من حول المركز الدينى فى مكة (٢) وفى مناوأة أوروبا على الأخص . نجد أن المسلمين يشعرون شعوراً عميقاً بأنهم وحدة متماسكة الاطراف (٣) لهذا يحق لنا أن نتكلم ، مادام أن الدين يصبغ الحياة اليومية بصبغته الخاصة ، إن قليلا أو كثيراً ، فى مدنية إسلامية موحدة الاجزاء ، تنقل الى الذهن دائماً حقيقة إن هـــذه المدنية الدينية مؤثر فصل يقطع بين حدين قطعاً تاماً .

وهذه الحالات التى لاشك مطلق الشك فى أنها لا تزال قائمة حتى اليوم ، قد زادت إلى صعوبة الفهم لدى البحث فى تاريخ نشوء الاسلام . وإذ نعرف أن الدين إلى الوقت الحاضر ما يزال العامل الأقوى الذى تقوم عليه كل الأشياء الأخرى مما يتعلق بالاسلام والمسلمين ، وإذ نرى أن كل الظاهرات التاريخية الخاصة بالاسلام يجب أن يرجع فيها إلى مؤسس الديانة ، فأى شىء يمكن أن يكون أقرب إلى البديهة من أن نعتبر

---

1 Missions — Bletter (journal of the st . Benedictus — Missions — Jenossenchalt, st. Ottilien) X111, Heft 9. p 130.

٢ — راجع كتاب ويلسون كاش — Wilson Cach — العالم الاسلامى فى انقلاب ص ١٠ فانك تجده يقول . اننا كنا نختلط بالحجاج وقد أزمعوا السفر الى الاقطار المقدسة . ولقد استطعنا ان نتخاطب مع بعضهم ونسألهم من تكونون فكان جوابهم جميعاً واحد اذ كانوا يقولون — مسلمون — Muslimeen ولم يستطيعوا أن يدركوا غرضنا الابعد تكرار السؤال مرات عديدة ، اذ أيقنوا بأننا نسأل عن قوميتهم .

٣ — نشك كثيراً فى صحة هذا الرأى الآن . فان فكرة القومية قد استقرت فى النهاية على كل العناصر الاسلامية فى أنحاء الدنيا.

الدين العامل الأساسي ، ان لم يكن العامل الاوحد ، الذي تعود اليه حقيقة خلق مدنية إسلامية متلائمة الاطراف ؟ (١)

ولدينا عامل آخر نتج عن العكوف على عادة النظر في الاشياء من وجهة النظر الكنسي ، تلك العادة التي ورثناها عن القرون الوسطى . ولا جرم أن هذا الاتجاه لا زال ثابتاً في نفسيتنا لدى النظر في الاسلام حتى الوقت الحاضر . فقد اعتدنا في القرون الوسطى وحتى في أوائل العصر الحديث ، أن ننظر الى الاسلام بدياً على أنه دين معاد ، وضع حداً لانتشار المسيحية وهددها فوق أرضها ، وغزاها في دارها . وكانت النظرة التي نظر من ناحيتها في نشوء الاسلام قد انحصرت في الاعتقاد بأن الدين الجديد قد ملأ صدر العرب حماسة وأفعمها حية ، وأن المسلمين قد اندفعوا الى الفتح الحربي تحت تأثير الرغبة الشديدة في هداية أهل الارض الى الاسلام ، وأنهم يعملون على نشر دينهم بالسيف ، وان محمداً كان نبياً ورجلا سياسياً معاً ، بل أعتقدوا بأن الثقافة العربية ممزوجة بالدين الجديد ، الاســــلام ، قد كونت تلك الصورة التي تعرف بالمدنية الاسلامية ، وانه على الرغم من أن عدداً من النظامات والفكرات الجاهلية ، قد استمرت باقية ثابتة الاثر ، فان الدين وحده لم يكن السبب الذي خلق المدنية الجديدة ، بل صورها ونظمها لا غير .

إذن فالدين هو القاعدة ، وكل الصور النشوئية الاخرى ، لم تكن الا نتيجة من نتائجه . فكان من الضروري على مقتضى هذه الفكرة ، أن يدمغ الدين طابعه الثابت في جبين الوحدة الصورية والخلقية . ومن هنا نشأت الفكرة في مدنية اســـلامية متلائمة الاجزاء ، موحدة الاطراف .

ولا مشاحة في أن كل باحث يتصل بكتاب العرب وفكره ملء بمثل هـذه الآراء . وبجانبها نظرة غير صحيحة نشأت حول تاريخ النصرانية (٢) ، يجد أنها آراء

---

١ — هذا الرأي صحيح من كل الوجوه . فالمدنية التي نسميها المدنية العربية ليست لدى الحقيقة الا مدنية اسلامية اتخذت صبغتها العامة من وقع استمدت من مختلف صور الحضارة التي اختصت بها الشعوب التي دخلت في حوزة الاسلام والفت بينها على النحو الذي نراه جلياً فيما نسميه بالمدنية العربية — المصور

٢ — يشير الكاتب الى ارنست ترولتش Ernst Troeltsch في كتابه — (Collected Works Vol. t.) Die Soziallehren der christ lichen Kirchen

ويعترف المؤلف بأنه مدين لهذا المؤلف بكثير من الفكرات التي عنت له خلال هذا البحث من قراءة هذه القطع وغيرها من القطع المتناثرة خلال هذه المجموعة .

لها سنداتها ومبرراتها . ذلك لأن السلطات المحمدية لها قواعد كهنوتية ١ مقررة مفروغ منها . كذلك تراهم يقررون جملة ، بأن نشوء الاسلام من خلق محمد ، ومن ابتكار الخلفاء الراشدين فى عصر الاسلام الذهبى . وعندهم ان الحكومة والمجتمع ، وكذلك الحركتان العلمية والاقتصادية ، جماعها تخضع للاوضاع الدينية . وكان المتبع أن يخلع من هذه الارض الدينية التى اعشوشبت بمختلف النظريات ، كل نبتة طفيلية يمكن أن تنبت فى جنب من جوانبها ، وتنبذ نبذا . اذن فالعالم الاسلامى محكوم بالدين ، سواء أفى ماضيه أم حاضره ، ولو نظرياً على الاقل .

غير أن النقد الحديث لم يتناول هذه المباحث الامنذ عهد قريب لايتجاوز بضعة عقود من الزمان، وعلى الاخص بعد ظهور كتاب «تاريخ الثقافة» Kulturgeschichte الذى الفه العلامة الكبير ، الفرد فون كريمر، Alfred Von Kremer ولقد نجحت الابحاث الحديثة تدرجاً وعلى مر الايام فى أن تتحرر من تقاليد « الاسلام » ، وعمد الباحثون وطلبة العلم ، سواء أفى السياسة والشريعة ، أم فى الدين والحياة : الى التفريق بين النظريات والعمليات ، ولقد حققوا بهذه الوسيلة ان الانتصار فى المعركة التى قامت بين مطاليب الدين ومقتضى العادات القومية ، قد حالف الثانية دون الاولى . بل أثبتوا أنه فى خلال الصراع الذى قام بين مختلف الآراء المتنابذة ، لم يكن اللون الدينى غالباً الا عبارة عن وضع أدبى ، لا أقل ولا أكثر . ورأوا أن الشريعة الدينية لم تنشأ متطورة عن الاوضاع التشريعية العملية التى كانت قائمة بالفعل ، بل أتت منابذة لها ، ومن ثم اتضح أن بناة الامبراطورية العربية لم يكونوا يعملون على نشر الدين كسبب مباشر لفتوحاتهم على اطلاق القول ، بل عملوا ، فى أول ماعملوا له ، على تثبيت سلطة العرب الزمانية وتركيز سيادتهم فى ماجاورهم من الامبراطوريات ولا جرم أن جماع هذا يزودنا بمادة واسعة تشبع نهم الفكر . لهذا يحق لنا أن نتساءل حين نواجه هذه الحقائق ، أليست فكراتنا التقليدية التى ثبتنا عليها فى حقيقة الدور الذى لعبه الدين كعامل من العوامل المكونة فى الاسلام ، تحتاج إلى تعديل ، وتفتقر إلى اصلاح ؟ ٢

« البقية فى العدد التالى »

---

(١) Clerical

(٢) العصور — ستوالى نشر هذا المقال القيم فى أعداد العصور تباعاً لتعذر نشره دفعة واحدة لما يحتاج من الفراغ الكبير.